**مستويات التناص القرآني في خطبة الغدير لرسول الله محمد (ص)**

**م.م ضرغام عدنان صالح الياسري**

جامعة سومر/كلية التربية الأساسية

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**خلاصة البحث**

الحمد لله رب العالمين، وأتم الصلاة وأزكى السلام على المبعوث رحمة للأنام الحبيب محمد، وعلى أهل بيته أهل الكرامة الذين خصهم خاطب الغدير برداء الإمامة .

تدرس هذه الورقة البحثية توظيف النص القرآني في خطبة الرسول الكريم محمد (ص) في الثامن عشر من ذي الحجة، سنة عشرة للهجرة، المعروفة بخطبة (الغدير). وهي الخطبة التي نصّت على تنصيب الإمام علي (ع) خليفة لرسول الله (ص)، وإماما للمسلمين. وقد جاءت آيات القرآن الكريم في هذا الخطاب الشريف ضمن هذا السياق، وبمقاصد معينة أراد النبي (ص) إثباتها في أذهان السامعين، وذلك من خلال ما اصطلحت عليه لغة الأبحاث المعاصرة بـ(التناص)، هذه الآلية اللسانية التي تتداخل من خلالها النصوص المختلفة لتعطي بنية لغوية واحدة ذات أبعاد دلالية متشظية لعدد من المجالات، أو الموضوعات التي حوتها النصوص القرآنية المنتقاة بقصدية واضحة، ورصد هذه الأبعاد الدلالية هي الفرضية الرئيسة التي صدر عنها هذا البحث .

**Abstract**

This paper studies and explains the using of the holy Quran texts within the Prophet Mohammed (SAWA) sermon on 18th Dhul Hijjah, 10 AH, which called Al-Ghadeer sermon. This specific sermon is the oration which shows and stipulates that Imam Ali (AS) to be the caliph of the Prophet Mohammed and the Imam of Muslims. Many verses of the holy Quran were included in that holy speech (Al-Ghadeer sermon) of Prophet Mohammed, He (SAWA) used this speech technique to let the sermon purposes to reach the Muslims brains and their minds. This literary art that explains the insertion of the holy Quran texts within the normal texts called Intertextuality. In general, The Intertextuality means the relationship between texts in the literary arts and this relationship will give strength to the text, the new unique text will has many semantics dimensions of many subjects which are included in the chosen holy Quran texts. The observation of these semantics dimensions is the main aim and the principle theory in this paper.

**المقدمة**

شكّل التناص القرآني في خطبة الغدير، ظاهرة إجرائية مهمة، توافر عليها هذا النص الكبير بمضامينه العقدية والسياسية والاجتماعية، والتي تمس إلى حدٍ قريب واقع حياة الأمة الإسلامية على مَرِّ الأجيال، فالقول في الغدير عندما امتزج بالقرآن الكريم دلّ هذا الامتزاج أنّ مضمون الخطبة بمرجعيته القرآنية راسخ في أصل التشريع، ومنهج شرعته الإرادة الإلهية بحكمتها . وقد تمّ توزيع المادة العلمية على امتداد هذا البحث على أساس موضوعي .

**التمهيد**

يعرض التمهيد لإضاءتين الأولى لمفهوم التناص بوصفه أداة إجرائية تساهم في إنتاج النصوص ذات التوسع الدلالي، أما الثانية فكانت في خطبة الغدير روايتها، ومصدرها، وبيان السبق القرآني للغدير، وختامها قرآنيا، ونعي الرسول (ص) لنفسه، وكذلك الانفتاح الزمني للخطبة، وهذا ما سيتضح تباعا إن شاء الله تعالى .

**الإضاءة الأولى : التناص :**

يعدّ التناص أحد الأدوات الإجرائية المهمة والفاعلة بشكل كبير في قراءة النصوص على اختلاف أجناسها ومشاربها. فقديما عرف العرب الاقتباس، والتضمين، والإغارة، والاهتدام، وغيرها(1)، وأرادوا بها تداخل النصوص فيما بينها، واختلفوا في عدِّها مزية لمن يأتي بها، أو مأخذا عليه، ولكن استقراء مصادر التراث النقدي العربي تظهر أن عددا ليس بالقليل عدّها مزية لمن وظفها بالمستوى الصحيح في منجزه الإبداعي. والتناص هو التداخل، والتفاعل بين نص وآخر، أو نصوص متعددة، وهو ((التوليد المؤسس على التفاعل بين النصوص))(2) والنص الذي يستوعب كثيرا من النصوص ويحلها فيه على وفق رؤية معينة جدير بالقراءة التأولية الواعية لأنها تستدعي الخلفيات النصية للنص الجديد(3) ومن مزايا التناص أنّه يلغي الحدود بين النصوص المتعددة إذ يجعلها مفتوحة بعضها على بعض(4)، وإذا كان أساس التناص التفاعل والتشارك بين النصوص(5) فقد عدّه المختصون مفتاحا إجرائيا لقراءة النصوص وفهمها(6) فهما واعيا ينفذ إلى البنية الموضوعية العميقة التي تشكلت في النص الجديد بفعل تشرب دلالات النصوص التي تم استدعاؤها وتوظيفها، ومن ذلك استدعاء آيات ومضامين قرآنية في خطبة الغدير لرسول الله (ص) ليس على مستوى واحد بل مستويات متعددة وهذه المسألة – مستويات التناص- أقرّها الدرس النقدي المعاصر في تنظيره لهذه الظاهرة المهمة، يقول د. صلاح فضل: ((إن التحولات النصية لا تقوم كلها في درجة واحدة بل هناك درجات عديدة للتناص))(7) وعلى هذا الأساس يصبح النصُ فضاءً متعدد المعاني، أي تلك المعاني المتشعبة(8). ونصل بالقول إلى أنّ التناص ليس ((مجرد نقل شيء من نصوص سابقة إلى النص الحاضر إنما لابد أن يقتضي هذا النقل تفاعلا وتعالقا بين النص الغائب والنص الحاضر))(9) .

**الإضاءة الثانية: في خطبة الغدير:**

من الضروري بمكان أن نعلم أن خطبة الغدير مروية عن الإمام محمد الباقر (ع)، وقد استقى البحث شواهده لدراسة هذه الخطبة المنقولة في كتاب (الاحتجاج)(10) للشيخ أبي منصور أحمد بن علي الطبرسي المتوفي في حدود سنة (620هـ)، وقد صنف الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي (ت 1390هـ) موسوعة علمية كبرى في ذات السياق تحت عنوان (موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب ثمرات الأسفار إلى الأقطار)(11) .

وينبغي الالتفات إلى مسألة علمية هي على ارتباط وثيق بفهم مقاصد الغدير فهما دقيقا مفادها: أن خطبة الغدير قبلها (سبق قرآني)، و(ختم قرآني)، والسبق هو قوله تعالى: ((يا أيها الرسول بلـِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلـَّغت رسالته والله يعصمك من الناس))(12) والملاحظ في تفسير هذه الآية الكريمة أنها قد قرنت أمر (التبليغ بما أنزل) في ذلك اليوم ببلاغ الرسالة الإلهية التي أخذت من عمر النبوة ثلاث وعشرين سنة، وقد أعطت آية البلاغ وعدا لرسول الله (ص) بالعصمة من الناس. ولعل في هذا الوعد الإلهي لفت للأنظار لردة الفعل السلبية المعترضة على الأمر الإلهي، وأما الختم القرآني فقوله تعالى: ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا))(13) و((كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه))(14) و((تمام الشيء انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه))(15) فكمال الدين وتمام النعمة والرضا بالإسلام دينا إنما تمَّ في يوم الغدير .

وإذا أردنا الدخول في متن الخطبة ينبغي الانتباه إلى قوله (ص): ((معاشر الناس إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد فاسمعوا وأطيعوا وانقادوا لأمر ربكم))، فهي قولة ينعى فيها رسول الله (ص) نفسه، وهي عبارة استحقت أن توصف بـ(رثاء الذات). ولعل الفائدة منها تهيئة نفوس السامعين واستثارة عواطفهم ليتنبهوا لسماع ما يريد النبي (ص) بيانه لهم، فهذا اللقاء الذي يجمعهم بنبيهم (ص) سيكون الأخير، ولاشك في مثل هذه الأجواء سيطرح رسول الله (ص) خواتيم الأمور وأعظمها ونهاياتها التي بها تستقيم حياة الأمة الإسلامية في الدنيا والآخرة، وفي زمان يخلو منه (ص) .

أما قوله (ص): ((وعلى البادي والحاضر وعلى الأعجمي والعربي والحر والمملوك والصغير والكبير ...قد بلـَّغت ما أمرت بتبليغه حجة على كل حاضر وغائب، وعلى كل أحد ممن شهد أو لم يشهد، ولد أو لم يولد، فليبلغ الحاضر الغائب، والوالد الولد إلى يوم القيامة)) فلعل مرادها: أن يكون السامعون رسله إلى الناس كافة ليبلّغوهم بما أمروا موظفة لما يعرف بـ(الانفتاح الزمني)، و(تلاحق الأجيال) ليشمل الخطاب الأجيال القادمة في الأزمنة اللاحقة .

وتأسيسا على ما تقدم نصل إلى بيان مستويات التناص القرآني في خطبة الغدير الذي كشف البحث عنها. فالمستوى الأول آيات في (العظمة الإلهية)، والمستوى الثاني في (المشيئة الإلهية)، والمستوى الثالث آيات خصت بنزولها أو وظفها رسول الله (ص) في (الإمام علي ع)، وكان المستوى الرابع في (المطيعين) لأمر رسول الله (ص) بما جاء في خطبة الغدير، أما المستوى الخامس فكان في (المعاندين وسوء عاقبتهم) عند مخالفتهم لأمر الله تبارك وتعالى في الإمام علي وذريته من الأئمة الطاهرين (ع) .

ولعل الرابط الموضوعي الذي يربط بين هذه المستويات الخمسة هو الكشف عن أن الله عز وجل العظيم جبار السماوات والأرض كما بينه المستوى الأول، شاء، وقدّر، وقضى كما في المستوى الثاني، أن عليا (ع) خليفة لرسول الله (ص)، وإماما للمسلمين كما في المستوى الثالث، لتكون عاقبة المطيعين في المستوى الرابع خير الدنيا والآخرة، وتكون عاقبة المعاندين في المستوى الخامس خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

**المستوى الأول**

**آيات في العظمة الإلهية**

في عدد من الآيات القرآنية أو قل الموضوعات القرآنية التي حوتها خطبة النبي (ص) جاءت لبيان (العظمة الإلهية) ومنه ما نجده في قوله (ص): ((والغلبة على كل شيء...وقائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم...وجلَّ عن أن تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار...ومسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل يطلبه حثيثا))(\*) .

فالعبارة الأولى مأخوذة من قوله تعالى: ((والله غالب على أمره))(16) والعبارة الثانية مأخوذة من قوله تعالى: ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم))(17) والثالثة من قوله عز وجل ((لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار))(18) .

والمتدبر لهذه الآيات القرآنية المباركة، يلحظ بشكل جلي أنه ثمة رابط موضوعي تكاد تفصح عنه هذه الآيات، وهو عظمة الله عز وجل، إذ ذكر صاحب الميزان في هذا السياق: أن الإنسان إنما يخضع لما يدرك عظمته، ولما لا يدركه لعظمته كقدرة الله تعالى غير المتناهية، وعظمة الله عز وجل غير المتناهية، وسائر صفاته التي إذا واجهها العقل رجع القهقري لعجزه عن إدراكها(19) .

أما آية (شهد الله)، فهي ظاهرة في تعظيم الله تعالى، ناطقة بالثناء له عز وجل(20) و((شهد بهذه الشهادة، وهو قائم بالقسط في فعله حاكم بالعدل في خلقه، إذ دبـَّر أمر العالم بخلق الأسباب والمسببات، وإلقاء الروابط بينها، وجعل الكلَّ راجعا إليه بالسير والكدح والتكامل))(21)، فـ((لا إله إلا هو العزيز الحكيم موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه ولذا تمَّ بالاسمين العزيز الحكيم))(22). وبهذا تتضح الدلالة على عظمة الله عز وجل في سياق الآيتين السابقتين ليأتي بعدهما توظيف النبي (ص) لقوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار))(23) .

وفي هذا السياق فـ((قوله تعالى(لا تدركه الأبصار) صفة أخرى من صفاته العليا، وهي كناية عن تعاليه عن الجسمية ولوازمها، وتنزهه سبحانه عنها...فهو الإله الذي لا تدركه الأبصار، ويكون سرا غيبا وحاضرا غائبا، فلا يتصف به غيره سبحانه))(24) .

أما (وهو اللطيف الخبير) فيها معنى العظمة، وعلو الشأن، والكمال لله تعالى(25). وفي هذه الآية إثبات حاكمية الله عز وجل، وإحاطته بكل شيء، وحفاظه على كل شيء، وهو الخبير بمصالح عباده وبحاجاتهم، وتعامل معهم بمقتضى لطفه. وتقطع الأدلة العقلية أن الله تعالى لا يمكن أن يـُرى بالعين لأن العين لا تستطيع أن ترى إلا الأجسام، أو على الأصح من كيفيات الأجسام، في حين أن الله عز وجل أعظم من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود، وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء(26) .

لنجد بعد ذلك حضور (تسخير الشمس والقمر) في خطاب الخاتم (ص)، وهو يستدل على عظمة الله تعالى بهذه الظاهرة الكونية الكبيرة التي فاقت الإمكانات البشرية، ولعل إشراكَ- (الشمس والقمر) في حكم واحد هو (التسخير)، وكذلك ((بأن أجراهما على وتيرة واحدة وتقدير واحد وكل ذلك (يجري لأجل مسمى) يعني إلى مدة قدّرها الله لهما يجريان إليها))(27) وهذه الدقة العالية، وعدم الخلل في حركة الشمس والقمر التي يجري على وفق نظام خاص ودقيق جدا، فالكل يخضع لقوانين الخالق تعالى، ويستمر هذا التحرك وبهذه القوانين حتى آخر يوم من أجلهما - دالٌّ على عظمة الله عز وجل، فهي واضحة كالشمس والقمر، ونظام تسخيرهما . لذا نجد صاحب تفسير الأمثل في معرض تفسير هذه الآية الكريمة يقول: ((ما أجملها من عبارة، فلو وقف الإنسان من منطقة خارج نطاق الكرة الأرضية، ونظر إلى مشهد حركة الأرض حول نفسها، وتكوّن الليل والنهار اللذان يطوقان سطحها المكور لشاهد بصورة منتظمة أن سواد الليل يستولي على طرف النهار من جهة، ومن الجهة المقابلة يرى أن ضوء النهار يستولي في حركة مستمرة على ظلام الليل))(28) .

ومما سبق نخلص إلى القول بالاعتماد على آراء المفسرين إنّ استدعاء هذه الآيات والموضوعات القرآنية في خطبة المصطفى (ص) جاء يحمل في أثنائه الدلالة على عظيم الذات الإلهية، وإنما ورد هذا الموضوع لغرض رئيس في الخطبة .

**المستوى الثاني**

**آيات المشيئة الإلهية**

إن من يقلـِّب النظر في كلمات الخطبة الغديرية -على خطيبها وأهل بيته الصلاة والسلام- بحثا وراء الحضور القرآني يهتدي إلى نوع من الموضوعات الخاصة بالمشيئة الإلهية وإرادته تبارك وتعالى، إذ نجد المصطفى (ص) يقول: ((إله واحد ورب ماجد يشاء فيمضي، ويريد ويقضي، ويعلم فيحصي، ويميت ويحيي، ويفقر ويغني، ويضحك ويبكي، ويدني ويقصي، ويمنع ويعطي، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير)). فهذا النص واضح الدلالة بمضامينه القرآنية التي تنطق بالمشيئة والإرادة الإلهية المتحكمة في شؤون الخلق، وبالإمكان تشخيص مرجعيته القرآنية بعدد من الآيات المباركات ومنها قوله تعالى: ((وما تشاءون إلا أن يشاء الله))(29) . ومشيئة الله تعالى ((نظـَّم الأمور نوع نظـْم يؤدي إلى وجود الاختيار في الإنسان...وهو نظـَّم الأشياء على نحو يتيسر لكل شيء ما يتوجه إليه من مقاصده التي سوف يستوفيها بعمله...فالله سبحانه هو الغالب على أمره القاهر في إرادته المهيمن على خلقه))(30) وتأسيسا على ما تقدم فالمشيئة الإلهية ليست سالبة لإرادة الإنسان، وإنما موجدة للاستعداد والقابلية لسلوك أي طريق يختاره الإنسان بحرية كبيرة من دون الإكراه، وعلى هذا الاختيار يترتب أثر الأعمال سواء كانت في طاعة الله تعالى وأثرها الثواب، أم في المعصية وأثرها العقاب الإلهي .

ومما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ((إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون))(31) فقد ورد في التفسير أن ((الآية من غرر الآيات القرآنية التي تصف كلمة الإيجاد، وتبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده، أو يعينه في إيجاده، أو يدفع عنه مانعا يمنعه))(32). والسياق التفسيري لهذه الآية، وإن كان في إيجاد الموجودات، وأنه لا يمنع أن تشمل الإرادة الإلهية إيجاد النـُظم والسنن التي تسير عليها البشرية، بل إن ذلك من مقتضيات التشريع الإلهي وهذا من باب التوسع في تدبر النص القرآني الذي توافرت عليه الخطبة الشريفة موضع البحث .

وكذا قوله عز وجل: ((وما كان لمؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا))(33) فقد ((شهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني، فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد، أو تصرفه في شأن من شؤونهم بوساطة رسول من رسله، وقضاء رسوله...هو التصرف في شأن من شؤون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له، بمثل قوله (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فقضاؤه (ص)قضاء منه بولايته، وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ لأمره، وشهد سياق قوله (إذا قضى الله ورسوله أمرا)، حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا على أن المراد بالقضاء التصرف في شؤون الناس))(34) .

ومما تقدم يظهر جليا وحدة الموضوع في هذا السياق، إذ لفت المفسر النظر إلى تعلق قضاء الله سبحانه وتعالى بقضاء رسوله (ص) بوصفه المنفذ للأوامر الإلهية، ولا غرابة في الموضوع، وذلك بلحاظ قوله تعالى: ((وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى))(35) فالإرادة الإلهية ومن بعدها الإرادة النبوية قد قضت بولاية الإمام علي (ع) والأئمة من أهل البيت (ع) على الأمة، ولا مجال لخيار الناس وإنما عليهم الطاعة والامتثال .

ومن الشواهد الأخر للمشيئة الإلهية في الخطبة قوله تعالى: ((وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى))(36) فهذا النص القرآني ناطق بـ((انتهاء الخلق والتدبير إلى الله سبحانه، والسياق...سياق الحصر...ولا ينافي هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية، أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن، وأعضاء الضحك والبكاء من الإنسان في تحقيق الضحك والبكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة))(37) . ولا يخفى كيف أن النص القرآني قد أفصح عن مضي المشيئة الإلهية في تفاصيل دقيقة من سلوك الإنسان، فهل يعقل لهذه المشيئة أن تترك شأن هذه الأمة بعد أن يجيب النبي (ص) دعوة ربه ويلتحق بالملكوت الأعلى دون إيجاد من يكـّمل مسيرة البشرية في تكاملها إلى الله عز وجل، لذلك كان استعمال هذا الموضوع القرآني في نص الخطبة يعمِّق أو يرسِّخ الغرض الرئيس الذي سعت الخطبة الشريفة لإيصاله للسامعين على أتم وجه .

**المستوى الثالث**

**آيات في الإمام علي (عليه السلام)**

عند إمعان النظر في خطبة المصطفى (ص) تقصيا وراء المضان القرآنية وكيفية توجيهها في الخطبة، يتراءى للناظر أن نحوا من هذه الآيات خصّت بتوجيه من رسول الله (ص) الإمام علي (ع) بالذكر المباشر، مع الأخذ بنظر الاعتبار، أن غرض الخطبة الرئيس هو الإمام علي (ع). وهذه النصوص القرآنية موضع اشتغال البحث التي كانت قد توزعت بين سور القرآن الكريم، وآياته نجدها قد اجتمعت في الخطبة، وكما رأى المسلمون وسمعوا في ذلك اليوم، وفي ذلك المكان شخص النبي (ص) صادحا أن هذه الآيات المباركات، إنما نزلت في الإمام علي (ع)، وأكرم بها من خصوصية في أمير المؤمنين (ع)، فآية البلاغ ((يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس))(38) نجدها قد قرنت بين تبليغ الأمر الإلهي هنا، وبين أصل تبليغ رسالة الإسلام بشكل عام التي بلغ عمرها في ذلك اليوم ما يقارب الثلاث والعشرين سنة، وأي سنين هي! سنين النبوة ليلها ونهارها، سرها وعلنها، حـَرَّها وبردها، سرورها وأحزانها، وأفواج الملائكة والروح فيها تتنزل على رسول الله (ص) من كل أمر حكيم، كل ذلك من مسيرة النبوة المحمدية يساوي ما نصَّت عليه آية البلاغ، وزادت عليه إنَّ عدم التبليغ يذهب بالرسالة الإلهية كاملة .

والأمر الآخر الذي يراه المتدبر في هذه الآية الكريمة أنها أعطت النبي (ص) العصمة من الناس، إذ نبهت على الرفض أو قل الاعتراض على هذا الأمر الإلهي، ومع ذلك فقد تكفـّل الله سبحانه وتعالى حماية نبيه (ص) من الناس .

أما التناص القرآني الآخر، فهو قول الرسول (ص) في الإمام علي (ع): ((الذي محله مني محل هارون من موسى)) فهو من قوله تعالى حكاية على لسان النبي موسى(ع))) :واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري))(39) فالنبي (ص) وظـّف السياق القرآني الذي كان في موسى وهارون فيما بينه وبين الإمام علي (ع)(40)، وبالتأسيس على ما تقدم يكون مغزى هذا التناص إن الإمام علي (ع) وزير لرسول الله (ص) من أهله الذي شدّ أزره، وأشركه في أمره، لذلك نجد في الميزان أن الوزير ((من الوَزَر – بفتحتين – بمعنى الجبل الذي يلتجأ إليه. سمي به لأن الملك يلتجئ إليه في آرائه وأحكامه))(41) وفي طبيعة دعاء موسى (ع) فيما يخص أخاه هارون يقول تفسير الميزان: ((وأما الإشراك في النبوة خاصة، بمعنى: تلقي الوحي من الله سبحانه، فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرد في ذلك حتى يسأل الشريك، وإنما كان يخاف التفرد في التبليغ وإدارة الأمور في أنحاء بني إسرائيل وما يلحق بذلك))(42) لذالك كان أمير المؤمنين (ع) شريكا لرسول الله (ص) في التبليغ وإدارة الأمور دون النبوة، علاوةً على ما تقدم فإن النصوص القرآنية في هذا السياق توسعت بشكل ملحوظ في الخطبة، ومنه قوله تعالى: ((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون))(43) فهذه الآية الكريمة خصت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)(44). والملاحظ أنها جعلت ولاية الإمام علي (ع) امتدادا لولاية الله تعالى وولاية رسوله المصطفى (ص)(45) وهذه الولايات بمستوياتها الثلاثة مسبوقة بأداة الحصر (إنما) .

وتستمر الخطبة في تناصها القرآني الخاص بالإمام علي (ع)، ومنه قوله تعالى: ((إن الدين عند الله الإسلام ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين))(46) ذكر الشيخ الطوسي أن ((الابتغاء الطلب...والإسلام هو الاستسلام لأمر الله بطاعته فيما دعا إليه...لأن مبتغيه دينا ناج))(47) .

ومن المفسرين، من ربط بين الإسلام في هذه الآية الكريمة، والتسليم لأمر الله تعالى، في ولاية الإمام علي (ع) على وجه الخصوص(48) . ومنهم من رأى فيها طاعة رسول الله (ص)، فقد جاء في لطائف الإشارات في تفسير هذه الآية المباركة ((ويقال لمن لم يمشي تحت راية المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، المعظـَّم في قدره، المعلّى في وصفه، لم يـُقبل منه شيء ولا ذرة))(49) .

**المستوى الرابع**

**آيات في المطيعين لأمر رسول الله (ص)**

يعدُّ موضوع المطيعين لأمر رسول الله (ص) لما جاء من أوامر خطبة الغدير ونواهيها على قدر كبير من الخصوصية العلمية لمن يدرسها، بلحاظ أنه من الغايات النهائية التي سعى الخطاب المحمدي لتحقيقها، وبالإمكان رصد هذا الموضوع في عدد من التناصات القرآنية، منها قوله تعالى: ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنهم أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون))(50) هذه الآية المباركة ((من أقوى الآيات القرآنية التي تحذر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حب الله وحب أعدائه، إذ لابد من اختيار طريق واحد لا غير، وإذا ما كانوا مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حب أعداء الله))(51) وكذلك ((أن حب الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة شيء ممدوح، ودليل على عمق العواطف الإنسانية إلا أن هذه المحبة حينما تكون بعيدة عن حب الله فإنها ستفقد خاصيتها))(52) لاسيما أن النبي (ص) قد وظـّف هذه الآية الكريمة في حب الإمام علي (ع) وولايته وسائر أهل البيت (ع)، وبناءً على ما جاء في تفسيرها يكون خط حب الله تعالى وحب الرسول (ص) وحب أهل البيت (ع) مسارا واحدا .

وإذا تحقق مراد الآية فيما تأمر به وتنهى عنه، نال المطيعون فيض الإيمان الذي يكتب في قلوبهم، والتأييد بالروح منه تعالى، ودخول الجنان والخلود فيها، والرضا، وحزب الله تعالى، والفلاح، وقد ورد في تفسيرها ((إن أعظم ثواب معنوي وجزاء روحاني لأصحاب الجنة في مقابل النعم المادية العظيمة في القيامة من جنان وحور وقصور هو شعورهم وإحساسهم أن الله راض عنهم وأن رضا مولاهم ومعبودهم يعني أنهم مقبولون عنده وفي كنف حمايته وأمنه حيث يجلسهم على بساط قربه وهذا أعظم إحساس ينتابهم ونتيجته رضاهم الكامل عن الله سبحانه))(53) .

والشاهد الآخر لهذا الموضوع قول رسول الله (ص): ((ألا إن أولياءهم هم المؤمنون الذين وصفهم الله عز وجل فقال: ((الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون))(54) وقد جاء في تفسيرها ((لا ريب أن الآية تدل على أن خاصة الأمن والاهتداء من آثار الإيمان، مشرطا بأن لا يلبس بظلم، واللبس الستر...والظلم الخروج عن وسط العدل))(55)، والظلم هنا هو الظلم الاجتماعي(56) ولا مندوحة من التحذير من هكذا نوع من الظلم – الاجتماعي – فإمامة الإمام علي (ع) قضية اجتماعية عامة تشمل سائر المجتمع الإسلامي، وعلى مَرِّ الأجيال عبر مراحل التأريخ المتعاقبة .

والشاهد الثالث لهذا الموضوع قول الرسول (ص): ((ألا إن أولياءهم الذين يدخلون الجنة بسلام آمنين تتلقاهم الملائكة بالتسليم يقولون: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين))(57) فمن يبحث في تفسيرها يجد بشكل بَيـّن، أنها صرّحت بعظيم التبجيل وكبير الاحتفاء، بالوافدين إلى جنات الله عز وجل التي نالوها برضا الله تعالى عنهم، حيث أطاعوا الرسول (ص) إذ أمرهم بولاية أهل بيته (ع) و((ملائكة الرحمة فإنها تبادر أهل الجنة بالسلام المرافق للاحترام والتبجيل، ومن ثمّ تدعوهم لدخول الجنة))(58) .

وأما (طبتم) من الملائكة لأهل الجنة، فهي رجاء السعادة والسرور لهم، وبعدها تأتي بشارة الخلود في الجنة، وذلك لكي لا يخشى أهل الجنة زوال النعم الإلهية التي نالتهم من عند الله تبارك وتعالى(59) .

**المستوى الخامس**

**آيات في المعاندين لأمر رسول الله (ص)**

يعد موضوع المعاندين -لما جاء في خطبة الغدير- من الموضوعات التي لها عناية وحضور خاص في توظيف النصوص القرآنية في الخطبة موضوع الدراسة، إذ نجد استدعاء عدد من المضامين القرآنية التي تبيـّن حالهم وفيما يكون مآلهم، ومنه قول الرسول (ص): ((وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم))، وكذلك ((حتى أنزل الله في ذلك قرآنا: ((ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل هو أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم))(60) .

ومن شواهد هذا الموضوع أيضا: ((أنه سيكون من بعدي أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون، معاشر الناس: إن الله وأنا بريئان منهم معاشر الناس: إنهم وأنصارهم وأتباعهم وأشياعهم في الدرك الأسفل من النار ولبئس مثوى المتكبرين وعندها سنفرغ لكم أيها الثقلان فيرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران)) .

فالنص الأول من قوله تعالى: ((إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم))(61)، وتقديره لمسكم عذاب عظيم حين تلقونه بألسنكم، وهو الاستمرار على الكذب، وقوله تعالى (تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) من وجه الإفك ولأنه كذب وافتراء(62)، وورد في تفسيرها أيضا: ((والمعنى أفضتم خضتم فيه، إذ تأخذونه وتنقلونه لسانا عن لسان، وتتلفظون بما لا علم لكم به، وقوله (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أي: تظنون التلقي بألسنتكم، والقول بأفواهكم من غير علم سهلا، فهو عند الله عظيم لأنه بهتان وافتراء))(63) .

أما آية ((ومنهم الذين يؤذون النبي)) التي ورد في تفسيرها ((أخبر الله تعالى في هذه الآية، إن من جملة هؤلاء المنافقين الذين وصفهم وذكرهم من يؤذي النبي (ص)، والأذى هو ضرر تنفر منه النفس في عاجل الأمر، وإنهم يقولون: هو أذن، يعنون النبي (ص)، ومعنى أذن: بأنه يصغي إلى كل أحد، فيقبل ما يقوله))(64) ومن تفسيرها أن ((الأذن جارحة السمع المعروفة، وقد أطلقوا عليه (ص) الأذن، وسموه بها إشارة إلى أنه يصغي لكل ما قيل له، ويستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن))(65)

وأما ((قوله: (قل أذن خير لكم) من الإضافة الحقيقية، أي سمّاع يسمع ما فيه خيركم، حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم))(66) .

أما (الأئمة الذين يدعون إلى النار) من بعده، فهو عود إلى قول الله عز وجل في فرعون: ((وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون))(67) فقد ((أخبر الله تعالى أنه جعل فرعون وقومه أئمة يدعون إلى النار))(68) وتأسيسا على هذا التفسير، نجد في الخطبة تشبيه هؤلاء المعاندين بفرعون وقومه، لما عتوا عن أمر ربهم، وفي دعواهم إلى النار، فقد جاء في وصف (أئمة النار) أنهم: ((يقدِّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله))(69) وهذا واضح الدلالة على أن اعتراضهم رد لأمر الله، وحكمه في كتابه العزيز .

ومن صفات المعاندين في خطبة الغدير قرآنيا: ((سنفرغ لكم أيها الثقلان ))(70) وكذلك: ((يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران))(71) ومن تفسيرهما: ((أن الآيات مورد البحث، تتحدث عن أوضاع يوم القيامة، وخصوصيات المعاد، وفي الوقت التي تحمل تهديدا للمجرمين، فإنها وسيلة لتربية وإيقاظ المؤمنين))(72) ولمفردة (سنفرغ) عناية خاصة في بيان تفسير هذه الآية الكريمة، فهي أي: (سنفرغ)، تستعمل غالبا بالتوجه الجاد لعمل ما، والانصراف الكلي له، واستعملت هنا تأكيدا على مسألة حساب الله تعالى لعباده بصورة لا يغادر فيها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا يغفل عن مثقال ذرة من أعمال الإنسان خيرا أو شرا، والأظرف من ذلك أن الله الكبير المتعال، هو الذي يحاسب بنفسه عبده الصغير، وعلينا أن نتصور كم هي مرعبة ومخيفة تلك المحاسبة(73) .

و(الشواظ) بحسب ما ذكره المفسرون ((ألسنة النار التي تقتطع من النار نفسها حسب الظاهر، وتكون خضراء اللون، وعلى كل حال فإن هذا التعبير يشير إلى شدة حرارة النار، ونحاس بمعنى الدخان، أو الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان...وكم هي عجيبة (محكمة القيامة) حين يحاط الإنسان إحاطة تامة بالملائكة والنار الحارقة، والدخان القاتل، ولا مناص إلا التسليم لحكم الواحد الأحد في ذلك اليوم الرهيب))(74) وبعد كل ما تقدم أصبح واضحا كيف رسول الله (ص) بيـَّن من خلال توظيف النصوص القرآنية في المعاندين، وما ينتظرهم من أليم العذاب وشدته، نعوذ بالله عز وجل من دخوله .

**خاتمة البحث**

بعد رحلة قضت بين آيات القرآن الكريم التي حوتها خطبة الغدير لرسول الله (ص)، وكما أبان البحث أنها جاءت على خمسة مستويات، وظـّفت بصورة دقيقة لخدمة الغرض الرئيس من الخطبة، نصل إلى بيان النتيجة النهائية التي توصّل البحث إليها، وهي أن عظيم السماوات والأرض، شاء، وقدر: أن عليا (ع) خليفة لرسول الله (ص)، وإماما للمسلمين من بعده، فمن أطاع نال شرف الدنيا والآخرة، ومن عاند وعصى خسر الدنيا والآخرة، ولا بد من التذكير بأن مخالفة الأوامر الإلهية في الخطبة لم تكن مخالفة لله تعالى بصفاته الغفور الرحيم، وإنما بصفات العظيم الجبار كما بينه التناص القرآني فيما سبق، وهذا أشد بيانا وأكثر وقعا وتأثيرا في نفوس السامعين.

والحمد لله تعالى أولا وآخرا، وختامها أتم الصلاة وأزكى السلام على خاطب الغدير وخليفته بالحق وأهل بيته الطيبين الطاهرين .

**الهوامش:**

(1) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني : 2 :280 وما بعدها.

(2) التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، د. عبد القادر بقشي : 15.

(3) ينظر: التناص في رواية الجازية والدراويش، وناسة صمادي : 18.

(4) ينظر: المصدر نفسه :25.

(5) ينظر: التناص الديني عند أبي العتاهية، حسين علي بشير :18.

(6) ينظر: استراتيجية التناص في الخطاب الشعري، إكرام بن سلامة :22.

(7) علم النص وبلاغة الخطاب، د. صلاح فضل : 222.

(8) ينظر: دراسات النص والتناصية، د. محمد خير البقاعي :36.

(9) المعايير النصية في القرآن الكريم، د. محمد أحمد عبد الراضي :179.

(10) ينظر: الاحتجاج، الشيخ أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي 1 :70 – 85 .

(11) ينظر: موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني، إذ توزعت خطبة الغدير وما حولها من موضوعات على امتداد أربعة مجلدات .

(12) المائدة: 67.

(13) المائدة:3.

(14) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الاصفهاني :726.

(15) المصدر نفسه: 168.

(\*) من الضروري أن نوضح أن شواهد البحث من خطبة الغدير لم يذكر لها الصفحات وإنما اكتفى البحث بالإحالة رقم (10) التي بيّنت أن خطبة الغدير في الاحتجاج للطبرسي تبدأ من الصفحة (70) وتنتهي إلى الصفحة (85) وذلك بهدف عدم الإطالة في الإحالات .

(16) يوسف: 21.

(17) الأعراف: 18.

(18) الأنعام: 103.

(19) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي :3 :66.

(20) ينظر: مجمع البيان، الشيخ أبو منصور أحمد الطبرسي: 2: 208، الميزان 3: 135.

(21) الميزان 3: 131.

(22) المصدر نفسه 3: 135.

(23) الإنعام: 103.

(24) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري 14: 227.

(25) ينظر: المصدر نفسه: 14: 230.

(26) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي:4: 176.

(27) التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي: 9: 6.

(28) الأمثل: 11: 462.

(29) الإنسان: 76.

(30) الميزان: 3: 16.

(31) يس: 82.

(32) الميزان: 17: 114-115.

(33) الأحزاب: 36.

(34) الميزان: 16: 327.

(35) النجم:4-5.

(36) النجم:43-44.

(37) الميزان: 19: 50.

(38) المائدة: 67.

(39) طه: الآيات:29، 30، 31، 32.

(40) ينظر: البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني: 5: 170.

(41) الميزان: 14: 146.

(42) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(43) المائدة: 55.

(44) ينظر: تفسير العياشي، أبو النصر محمد بن مسعود العياشي:1: 356.

(45) ينظر: البرهان: 2: 475 وما بعدها.

(46) آل عمران: 85.

(47) التبيان في تفسير القرآن: 2: 520.

(48) ينظر: البرهان: ج2: 65.

(49) لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري:1: 268.

(50) المجادلة: 22.

(51) الأمثل: 14: 46.

(52) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(53) نفسه: 14: 48.

(54) الأنعام: 82.

(55) الميزان: 7: 206.

(56) ينظر: المصدر نفسه والصحة نفسها.

(57) الزمر: 73.

(58) الأمثل: 11: 579.

(59) المصدر نفسه: 11: 580.

(60) التوبة: 61.

(61) النور: 15.

(62) ينظر: التبيان: 7: 417.

(63) الميزان: 15: 93.

(64) التبيان: 5: 247.

(65) الميزان: 9: 324.

(66) المصدر نفسه: 9: 325.

(67) القصص: 41.

(68) التبيان: 8: 154.

(69) الميزان: 16: 40.

(70) الرحمن: 31.

(71) الرحمن: 35.

(72) الأمثل: 13: 460.

(73) ينظر: المصدر نفسه: 13: 461.

(74) نفسه: 13: 463.

**مصادر البحث:**

* القرآن الكريم
* الاحتجاج، الشيخ أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، منشورات الشريف الرضي، إيران، ط1، 1380هـ .
* الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط1 ، مدرسة الإمام علي (ع) للنشر ، إيران ، قم ،1426هـ .
* البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، ط2 ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت لبنان ، 2006.
* التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، ط1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان (د.ت) .
* تفسير العياشي، أبو النصر محمد بن مسعود السلمي السمرقندي العياشي، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، 1991
* التناص في الخطاب النقدي والبلاغي، د. عبد القادر بقشي، ط1 ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2007 .
* دراسات النص والتناصية، د. محمد خير البقاعي، ط1 ، مركز الانماء الحضاري ، حلب ،سوريا ، 1998.
* علم النص وبلاغة الخطاب، د. صلاح فضل سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 164، 1992.
* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروان، ط5 ،تح: د. محمد محيي الدين ، دار الجيل ، القاهرة ،1981.
* لطائف الإشارات تفسير صوفي للقرآن الكريم، عبد الكريم القشيري، ط1 ، تح د. إبراهيم بسيوني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، (د.ت).
* مجمع البيان، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، (د. ط)، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، بيروت لبنان ،2005.
* المعايير النصية في القرآن الكريم، د. محمد أحمد عبد الراضي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010.
* مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الاصفهاني، ط4 ، تح: صفوان عدنان ، دار القلم ،2009 .
* مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، ط5 ، مطبعة نكين ، قم المقدسة إيران ، 2010.
* موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب ثمرات الأسفار إلى الأقطار، الشيخ عبد الحسين الأميني، ط1، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ، إيران ، قم المقدسة ،2007.
* الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط1 ، مؤسسة الأعلمي للمنشورات ، بيروت لبنان ، 1997.

**الرسائل الجامعية:**

* استراتيجية التناص في تحليل الخطاب الشعري في النقد العربي القديم، إكرام بن سلامة، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات ، جامعة قسطنطينة ، 2014 .
* التناص الديني عند أبي العتاهية، حسين علي بشير، رسالة ماجسيتر ، كلية الآداب ، الجامعة الإسلامية ، فلسطين ، 2014 .
* التناص في رواية الجازية والدراويش، وناسة صمادي، رسالة ماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، الجزائر ،2003 .